ذبينها أمي يجلى في طرابلس ۞ والكاس طلت على محروسها بلس
أذكرتني منه ما لم أنسه أبداً ۞ ولم يزل أنسنا في مجلس الأنس
يا من ترنح عن راحة بادنها يا له ۞ هل لي بحسا بكاس للمطلاد يسى
وانني لحفيظ للوداد ولو ۞ أعياك رسم وداد غير مندرس
لا زلت غرة أهل العصر في صعد ۞ إلى المعالي بأعماد غير منتكس
ما لي سوى نسمات الشعر أهديها ۞ نجيبة لدمشق من طرابلس

شيخ الإسلام زكريا بن بيرام

مفتي الديار الرومية، والممالك العثمانية، وأجل كل من تفتحت عن مسائله أكمام الشقائق النعمانية. هو من جوهر الفضل مكون، وكتاب الدهر بمحاسنه معنون. ما طلعت نجوم ذكائه دير الأواخر وأشرقت آفاق الدنيا رونقاً وابتهاجاً، ولا امتطى صهوات النجابة إلا كان له نور الفهم على دهم الإشكال سراجاً وهاجاً. دانت له الليالي فجلى بها ظلمات الحنادس، وتدانت له المعالي فاستقربها وهو للبركات المجرس سادس. حتى أصبح وهو لجر إفادته، وما طفا بلسان إجادته، وقد جمع الفضائل كلها، وحوى المحاسن دقها وجلها. ومع ذلك فهو مطلق الهمة لاسر الهبات، مقتصر المكارم على العمود والثبات.

إذا هطلت سحب جدوى بنانه ۞ سقى الجود منها رياض المنى
طلائع إحسانه بشره ۞ كما سبق النور غض الجنى

لم يات من المراتب شيئاً زرياً، ويكفل الفضائل والفواضل كفالة زكريا. وكان نجمه في المنقول والمأثور، جامعاً بين حسن المنظوم ورونق المنثور. وله فيهما ما تقف الفصاحة عنده، وتعقد البلاغة حده. فمن ذلك ما قرظ به طبقات التقي التميمي بقوله

هذا كتاب فاق في أقرانه ۞ يسبي العقول بشعره وبيانه
سفر جليل عبقري فاخر ۞ سحر حلال جاء من تبيانه
أوراقه أشجار روض زاهر ۞ قد تجتني الثمرات من أفنانه
لله در مؤلف فاق الورى ۞ بمزايد غدا فريد زمانه
فجزاه رب العالمين بلطفه ۞ طبقات عز في فسيح جنانه

لما تعمقت في لجج هذا البحر الزاخر، صادفت أصناف الدرر الكامنة النوادر. وألفيته روضة غناء زاهرة أزهارها، ودوحة زهراء ناضرة أشجارها، وجنات شقائقها محمرة، وجنات حدائقها مخضرة. تذكرة لعارف تقي، وتبصرة لمتبصر الرواية نقي. جاوز الشعرى بشعره الفائق، وفاق النثرة بنثره الرائق. قد استغنا بجواهر المعنية تاج تراجم الأعيان، فصار كأنه مرآة انعكس فيها سير الأسلاف وأشراف أفاضل الزمان. اللهم اجمع بيننا وبينهم في غرف جنته وطبقات جنانه.

ومما له من الشعر قوله

إذا ما كنت مرضي السجايا ۞ وعاشرك الورى منك على أمان
نعش في الدهر ذا أمن ويمن ۞ وتبلغ ما تريد من الأماني

وقوله

وقوله في الغزل

تذوب للعشاق من لحظه ۞ دماؤهم سالت على الأودية
يا عجباً من قاتل إنه ۞ ليس عليه قود أو دية

ولده شيخ الإسلام يحيى

المولى الأعظم، والملاذ الأعصم، والعروة الوثقى التي لا انفصام، وواحد الزمان، وثاني النعمان. طلع شمساً في فلك العلياء فلما قابل أرضه البدر انخسف، ودار كل شهر على لقاه فلما أيس انتحل بل امحق من الأسف. بسعده الآفاق مشرق في جهة المجد مشرق، واستقر به في مكان المركز تحيط به دائرة العلوم من باب واحد بل دخلها من أبواب متفرقة. فأطاعته الدولة إطاعة المملوك لمالكه، ونفذت كلمته نفاذ كلمة المليك في ممالكه. فهو ربا شد مطارح رسالتها حرم، وكل فعالها جود وكرم. فلم يدع لغيره من أهل الفضل ذكراً، ولن يعد معروف يحيى بن خالد نكراً. بل لم يبق لكعب بن علوه كعب، وأنسى دعوة حاتم بأي ماح وحاتم. تتنفس الأسحار عن آثاره، وتتبسم الأماني عن جوده وإيثاره. لله دنيا شرفته بلا أوحد المفتي، والأيام تغضب إذا غضب وترضى إذا رضي. وقد ضمنت مساعيه أن يشكر، وآلت لا تغيب لأفراده حتى يذكر. وله الوقر الذي استخدم الأنام، واستعبد الليالي واسترق الأيام. إذا أقبل في موكبه وجلاله، تسجد الأجفان لتعظيمه وإجلاله. في أبيه سراج الملوك، وذلك من نظمه الذي هو نظم السلوك، وهو كنز الأدب وحده لأرباب الكلام. فإذا أمسك القرطاس اختصمت أفواه الدوى في تقبيل أقدام الأقلام.

يستوقف العلياء جلال كماله ۞ ويجد الراغ بكفه بتجب لا
لا تشتهر البيان غرة ۞ حتى يسيل به الثرى تجميلا

وكل من كان في عصره، فهو حام من غصن الأدب من محل هصره. والأكرم عليه تخرج، وفي بستانه تأرج، ومن طبعه اكتسب، وإلى طرف نعمه انتسب. فرياض أفكاره باسمة الثغور عن شنب المعاني والألفاظ، وخيام أشعاره مشتملة عن قدر الخدود ورجل الألحاظ، تهز أعطافها أدنباحا براشراقي وتخشى بها السرعات كؤوسها على الغدران الصوافي.

مستظهر بعبارات وألسنة ۞ تفتنت كرياض الحزن ألوانا
تهدي إلى الغزل الأعراب منبعها ۞ ورقاً وبالمنطق التركي خاقانا

وقصائده ورد له ما يحلي الأدب كما يحلي الأسوار الزند، يفوح عرفه كما يفوح العنبر والرند. فمن قوله

ورد النسيم بأطيب الأخبار ۞ طاب الورود وسائر الأزهار
سكروا بخمر الشوق حتى أظهروا ۞ ما في ضمائرهم من الأسرار
من جمعهم لم يلق الأماني سكا ۞ قد حاز الإبريز والدينار
والحوض فيه بمجالس ملكية ۞ والورد كالسلطان في الأطوار

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)